

مقدمة:

"القول" هو تراث وفن وشكل من أشكال التعبيرات الشفهية التي تحمل في مضامينها مخزون ثقافي مكثف من نتاج جمعي يتسم بمهارات اكتسبها جرّاء التراكمات التاريخية التي أضفت صبغة الخصوصية والمحلية عليها. ولذلك نعتبرها ظاهرة اجتماعية وأدبية مرتبطة بالذاكرة الفردية والجماعية للمجتمع وبخاصة في الجنوب الغربي ، ونعتبرها أيضا منظومة متداخلة ومتقاطعة من القيم الأخلاقية والثقافية والاجتماعية، فهي مسألة مرتبطة بجوهر الإنسان وما يعايشه في يومياته

إنّ "القول" هذا الجزء المنسي من تراثنا يعدّ عنصرا مهما من عناصر التعبيرات الشفهية، التي تحتاج إلى عناية كبيرة وذلك بجمعها وتدوينها ودراستها وإحياء ذاكرتها وتثمين ما تمثله من رموز ثقافية وقيم إنسانية، هذا الأمر الذي يجعلنا نهتم به وبأشكال مختلفة من أنماط الأدب الشعبي الذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من الموروث الثقافي من خلال نتاج تراكمي عاكس لحياة واقعية

فالتراث الشعبي هو من أهم مصادر الدراسات الاجتماعية والثقافية القديمة، إلا أنه بالرغم من هذه الأهمية لفن "القول" بمنطقة البيض فهو بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى مزيد الاهتمام من طرف الباحثين فيه بغرض دراسة مضامينه وأشكاله وتصنيفه، ومن طرف القائمين على شؤون الثقافة في هذه الولاية قصد إبرازه وتشجيع المهتمين به . وما هذا البحث إلا إسهام إضافي يصب في هذا الاتجاه وفي هذا المسعى . فملتأمل في هذا الفن يلمس من الوهلة الأولى ثراءه بالحمولات الاجتماعية والحمولات التاريخية وكان يعكس فعلا واقع الإنسان بمنطقة البيض في حياته الاجتماعية والتاريخية، كما أنها ذات حمولات اجتماعية ودينية وثقافية وغيرها. حيث يجدر بالباحث في أعماقه أن يميز شكله عن باقي أشكال التعبيرات الشعبية التراثية الأخرى كالشعر الملحون والأمثال والأقوال وغيرها.

ولذا فإنني أعتقد أنه يتحتم علينا كباحثين أن نخضع فن "القول" إلى الدراسة والبحث، ولتكن الخطوة الأولى في ذلك جمعه من أفواه "القوالين" ثم العمل على تصنيفه وفق أشكال وأنماط مختلفة، تمهيدا لاستخراج مضامينه. و من هذا المنطلق تأتي مساهمتي البحثية هذه ، بهدف التعريف بفن "القول" على إعتبار أنه أحد مظاهر التعبير الشعبي الذي تزخر به ولاية البيض

1- المبحث الأول: التعريف بـ "القول" بمنطقة البيض وتحديد خصائصه وأشكاله :

1-1 - التعريف بفن "القول" وتحديد خصائصه:

"القول" مصطلح شعبي عربي مشتق من لفظ "قال" الفصيحة، ونعني تلك الأغاني التراثية والشعبية المحلية، ويقال له أيضا "الترميميد"¹ هو عبارة عن كلمات وعبارات لها مضامين معينة تقولها النساء،

خاصة، وتؤدي في شكل غناء في مناسبات؛ كالأعراس، أو عند ختان الأطفال والاحتفالات المختلفة، أو في استقبال أحد أعيان ورجالات الدولة حينما يحضر بالمنطقة كشكل من أشكال الاحتفاء به.

وهذا الفن هو فن غنائي تراثي كانت تختص به النساء بشكل خاص، حيث يجتمعن ويرددنه في شكل غناء وبشكل جماعي، ويستعملن في أدائه آلة "الطبل" الموسيقية، أو ما يسمى بـ "البندير"²، ليضفي عليه إيقاعاً معيناً، لكنه اليوم عرف بعض التطور في شكله وفنياته حيث صار فناً غنائياً بامتياز يؤدي بالمعازف الحديثة كالسنتي، والآلات التقليدية "القصة" (الناي) وغيرهما.³

لدرجة أنه أصبح أي "القول" يثير جدلاً بين المهتمين به بتصنيفه ضمن التعبيرات الشعبية؛ فهل هو شعر ملحن أم إنه شكل آخر غير ما ذكر؟ فمن حيث كلماته ليس "القول" قصائد كالشعر الملحن الطويل منه والقصير، والتي تكون فيها الأبيات موزونة ومقفاة كحال الشعر الفصيح أو حتى بعض الشعر الشعبي التراثي الملحن⁽⁴⁾، ولكنه عبارة عن مقطوعة "قولية" قصيرة لبضع عبارات وكلمات حول موضوع معين ليس بها قافية ولا هي موزونة تختلف عن الشعر باعتبار هذا الأخير يعتبر الوسيلة الناجحة للتغني، بالبطولة والشجاعة مثلاً في ثورة التحرير، من خلال وصف الأبطال في ساحات الوغى وبلائهم ضد الأعداء. وهو "أغزر مادة أدبية وأتقنها فناً وأكثرها تأثيراً، لأن الشعر خير معبر عما يختلج في النفوس، واللون الأكثر ملائمة والأسرع تجاوباً وانعكاساً والتصاقاً بالحدث اليومي للثورة ومعايشة يومياتها التي شارك فيها أبسط مواطن وأعظم قائد".⁵

و"القول" كأغلب فنون التعبيرات الشعبية لا يعرف له قائل محدد، مثل في ذلك مثل الألغاز والأحاجي والأقوال والأمثال وحتى الألعاب الشعبية، حيث تنتقل "المقطوعات القولية" بين أفراد المجتمع وتصبح ملكاً للموروث الشعبي عامة ولا يحق لأحد أن يختص بها دون غيره، ولكن قد يحدث أن ينسب إلى مؤديها، فيقال "قول فلان أو فلانة (ك"قول" الحاجة هدروقة والحاجة "الضاوية" مثلاً)

ويعد فن "القول" أكثر الفنون الشعبية الأخرى انتشاراً، لأنه مرتبط بالغناء ويكثر ترده في المناسبات حيث نجد المقطوعة "القولية" تنتقل بين "القوليين" في مناطق مختلفة فتحظى، بذلك، بالشيوع والذيع، خاصة إذا كانت ذات مضامين مؤثرة أو كان "قوالها" ذا صوت يشد إليه الأسماع. ومنه يمكن القول بأن فن "القول" له عدة خصوصيات لعل من أبرزها:

- من حيث الشكل القول ليس من الشعر الموزون المقفى ولا الشعر الملحن الشعبي

غير أن هذا لا ينفي شاعريته على مستوى المعنى، والجرس الموسيقي عند أدائه بالكيفية العرفية

-أنه يغنى من قبل النساء جماعيا في جلسة ذات شكل دائري بمصاحبة آلة الدف التقليدية (البندير)، ولا يلقي إلقاء كما هو معروف عن بقية الأشعار الشعبية الأخرى. يغنى أيضا أثناء رقصة الصف التي تنقسم فيها الراقصات إلى صفين متقابلين، يتحركان نحو بعضهما ثم يبتعدان مسائرة للحن ولضربات البندير الذي تحمله بعضهن

-هو شعر جماعي مجهول المؤلف لأنه كثيرا ما يتم ارتجاله أثناء جلسة الغناء. ولم يتم تذييل تلك المقطوعات بأسماء قائلاتها لسببين

- طبيعة العائلات المحافظة

- أن كبريات السن يرددن أكثر من قائلة للمقطوعة الواحدة الأمر الذي يمنعنا من الجزم بتحديد صاحبة المقطوعة وقد قمنا بجمع بعض المقطوعات من هذا النوع الذي واكب الثورة التحريرية في عدة مناطق من ولاية البيض كخطوة افتتاحية لمشروع جمع هذا التراث المتناثر والمهدد بالزوال في منطقة عذراء أمام الفعل الثقافي⁶

2-1 - شكل فن "القول":

سبقت الإشارة في العنصر السابق إلى أن "القول" يؤدي غناء، ولذلك فإن هذا العامل سيكون المتحكم في شكله ومضامينه، فهو قد صُمم في شكله ليكون موائما للغناء الشعبي في الأعراس والأفراح كلها.

فطول المقطوعة "القولية" يتراوح بين القصّر الشديد والقصّر المتوسط، ولقد اتخذ في سبيل ذلك إجراءات محددة منها:

-التكرار في عناصر المقطوعة "القولية": يلجأ "القول" للإطالة "قوله" وتأديته غناء إلى تكرار عناصر "القول" عدة مرات تتراوح بين المراتين (02) والأربع (04) مرات والثماني (08) مرات.

ففي "قول" بعنوان: "يَا خَيْمَةً لَّأَلَا وَبُنْتُ النَّعِي" (7). على سبيل المثال يقول فيه صاحبه:

"يَا خَيْمَةً لَّأَلَا وَبُنْتُ النَّعِي (تتكرر لمرة 02)، يَا مَشَاتُ قَيْضَانَةً مَّ حَالٌ لَا تَوَلِّي (تتكرر لمرة 02)، يَا طَبِيبُ رَبَّانِي وَبَدَاوِي الْمُحَنَّة (تتكرر لمرة 02)، يَا وَرَاهَا مَاشِيَا لِلصَّخْرَا تَدَاوِي (تتكرر لمرة 02)، يَا طَبِيبُ رَبَّانِي وَبَدَاوِي الْمُحَنَّة (تتكرر لمرة 02)، يَا مَشَاتُ غَيْضَانَةً وَمُحَالٌ لَا تَوَلِّي (تتكرر لمرة 02)، يَا دَفَعْتُ رَابُونِي لِلشَّيْخِ بُوعَمَامَةَ (تتكرر لمرة 02)، يَا عَمَاوُ عَيْنِيَا وَطَلَعُ شَيْبُ رَاسِي (تتكرر لمرة 02)، يَا مَشَاتُ غَيْضَانَةً وَهَذِيكَ عَزُّ قَلْبِي (تتكرر لمرة 02)، يَا مَشَاتُ غَيْضَانَةً وَمُحَالٌ لَا تَوَلِّيَا (تتكرر لمرة 02)،

يَا حَيِّمَةً لَّأَلَا وَبُنْتُ النَّعِيِّ (تتكرر لمرة 02). حيث يكرر "القول" كل مقطوعة فيه لمرة، وهذا بغرض إطالة شكل المقطوعة مما يعمل على إطالتها زمنياً فقد دام زمنها لثلاث (03) دقائق وثلاثة عشر (13) ثانية على قناة اليوتيوب.

2- المبحث الثاني: مضامين فن "القول" بمنطقة البيض.

إنَّ المتأمل في التراث اللامادي لمنطقة البيض سرعان ما يكتشف وبكل سهولة أنَّه زاهر بالكثير من المقطوعات القولية أداها العديد من الجماعات النسوية لعدة مناطق بمنطقة البيض من شرقها إلى غربها ومن شمالها على جنوبها، ويساعد الباحث والجامع لهذه المقطوعات أنَّ الكثير منها تتوفر على شبكة الانترنت؛ فقد انبرى عدد من المهتمين بالقول ومحبيه على تسجيله في فيديوهات على اليوتيوب، ولكنه جهد مهم كان كبيراً إلا أنه لا يفي بتسجيل كل "القول" الذي لا يزال محفوظاً في صدور العديد من العجائز وقد كاد أن ينقرض، كما انقرض كثير من التراث اللامادي للإنسانية تحت تأثير هيمنة العصرية والعولمة. ونحن تحليلنا لمجموعة مختارة كعينة من المقطوعات "القولية" المتوفرة على شبكة الإنترنت، فإننا يمكن أن نصنف موضوعاتها، في مجملها، إلى: اجتماعية، وتاريخية، ودينية، وعاطفية. وفيما يلي تحليل لنماذج وفق الموضوعات المذكورة:

1-2 - مقطوعات "قولية" ذات مضامين اجتماعية:

نقصد بالمضامين الاجتماعية كل القيم التي لها علاقة بالأسرة ومكوناتها والعلاقات بين أفرادها كالزواج والطلاق والحنين الذي يشعر به الفرد إزاء والديه والعكس أي ما يشعر به الآباء نحو أولادهم، أو القيم والظواهر الاجتماعية الأخرى كعلاقات الجيران وأبناء العمومة، أو غربة الأوطان، أو قيم التعاون بين أفراد المجتمع ومشاعر الحب والكراهية بين بعض أفراد المجتمع، وغيرها.

وبما أن هذه القيم والظواهر لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات بل هي من مظاهر اجتماع الإنسان وتميزه عن باقي المخلوقات الأخرى، فقد قال الفلاسفة "الإنسان كائن اجتماعي"، فإنَّ هذه القيم والظواهر يجسده الإنسان في التعبيرات والثقافة اللامادية ومنها الشعر والغناء ونحوه.

ولقد حفل "القول" بكثير من المضامين الاجتماعية، وهذه المضامين تختلف من جيل إلى جيل بحسب تطور المجتمع والتحولات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفها المجتمع الجزائري، فـ"القول" عرف تطوراً في مضامينه من حقبة الثورة الجزائرية مثلاً إلى حقبة ما بعد الاستقلال وما بعدها. ومن هذه المضامين الاجتماعية التي حفل بها "القول"، ظاهرة شوق الأم إلى أبنائها، والحديث

عن الطلاق وآثره، والحديث عن تغير صحة الفرد وإصابته بالكبر وبالمرض ومعاناته في ذلك وطلبه للعلاج، وفيما يلي بعض النماذج من ذلك:

2-1-1- فخر البنت بأخيها:

يكثر "القول" الذي تفتخر فيه العائلة بأحد أبنائها، خاصة إذا كان بطالا وذا خصال حميدة، حيث يشرف العائلة ويرفع رأسها عاليا بين العائلات الأخرى في المجتمع.

ففي قول بعنوان: "وَاللِّي بَخُوتْهَا مَا تَرْفَدُشْ الْهَانَا":

تقول فيها إحدى "القوالات": "وَاللِّي بَخُوتْهَا مَا تَرْفَدُشْ الْهَانَة، يُسَلِّمَ مَا جَابِلِي بَا فُلْحَرَّة، خُويَا مُنِين يَرْكَبُ يُشْبَهُ بَابَاهُ، مُنِين يُشَوْفُهُ خَاطِرِي يَزْهَى قَلْبِي، خُويَا مُعَاوَنَاتُهُ دَعْوَةٌ لَخَيْرُ وَهَّا يَجْعَلُ مَنْ لُمَصَائِبُ غَائِبُ، مَزَيْنُ جَارُهُمْ رَاهُ لِحَالٍ بُعِيدُ وَهَّا كِي رَاهَا هَائِضَا عَلِيَّا فُلْجَسَا".⁸

ففي هذه المقطوعة تتحدث "القوالة" وهي امرأة كما يتضح من اللغة المستعملة فيها، عن وفائها لأسرتها الأولى قبل أن تتزوج، وتعتبر فيها عن فخرها بأختها الذكور، فقد كان الذكر في العائلة، ولا يزال، في المجتمع هو سند العائلة ومصدر قوتها خاصة للبنات والأم، فالأخ الذكر يقوم مقام الأب حين غيبته أو وفاته. فهذه "القوالة" تعتبر عن انشراحها وسرورها بوجود أخيها إلى جانبها وتعتبر عن حسن حظها لأن أباه خلف لها أختا تستند إليه، ثم عبرت عن شوقها إليه وتحن إلى جلسة من تلك الجلسات التي كانت تجمعها بأفراد أسرتها قبل أن تتزوج وترحل عنهم.

2-1-2- موضوع انفصال الأبناء عن آبائهم بعد زواجهم أو ما يسمى بـ "الفريق":

وهذا من الموضوعات التي تضمنها فن "القول"، حيث لم يعرفها المجتمع الجزائري إلا منذ حوالي نصف قرن من الزمن تقريبا، ولكن هناك تحولات اجتماعية عرفها المجتمع الجزائري كباقي المجتمعات البشرية، لا يسمح المقام هنا بذكرها ولا بالتعرض إلى أسبابها. ففي مقطوعة بعنوان: "مَحَايْنِي مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي":

"تقول فيها "القوالة": "يَا مَحَايْنِي مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا نُبْقِي (أَحِبُّ) وَلَادِي وَلْمَزْزِي نَتْبَعُهُ، مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا مَحَايْنِي مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا الطَّابِلَة مَحْطُوطَة وَرَاعِيْلَهُمْ مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا مَحَايْنِي مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا الطَّابِلَة مَحْطُوطَة وَنَا حَايِرَة، مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا مَحَايْنِي مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا آ لِي نَحِي نَحْطُهَا تَشْرُطْ دَارَهَا، مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا مَحَايْنِي مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا آ رَانِي ارَاعِي لَوْلَادِي وَيَنْتِي يُجُو، مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا مَحَايْنِي مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا بَايْتَهُ ارَاعِي لَوْلَادِي وَيَنْتِي يُجُو، مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا مَحَايْنِي مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا وَهَارْ مَوْتِي فَاعْ وَلَادِي تَلَايْمُو، مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا مَحَايْنِي مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا دُبَايْلِي مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا نُبْقِي (بمعنى أَحِبُّ) وَلَادِي وَلْمَزْزِي نَتْبَعُهُ، مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي، يَا مَحَايْنِي مَا نَفْرُقْشْ وَلَادِي"

ففي هذه المقطوعة تتحدث "القوّالة" عن موضوع أصبح ظاهرة تؤرق العائلات الجزائرية، وهو ظاهرة "الفريق" أي انفصال الأولاد عن العائلة الكبيرة التي نشئوا فيها بمجرد زواجهم، فما إن يتزوج الشاب حتى يفكر في مغادرة أسرته التي عاش فيها، متخذاً له بيتاً جديداً يسكنه مع زوجته، مخلفاً أمّه وأباه من ورائه، وذلك بحجّة عدم التآلف بين الزوجة وأمّه. وقد كان المجتمع الجزائري من قبل يُعرف بالعائلات الكبيرة التي تضمّ الجدّ وبنيه وحفدته يعيشون معا في بيت واحد كبير، ويكون فيه زمام تسيير الأسرة للجدّ ثم من يليه من بعده، أمّا ظاهرة خروج الشاب من بيت عائلته للعيش في بيت لوحده مع زوجته فهي ظاهرة جديدة لم تعرفها الأسر الجزائرية إلا في العقود الأخيرة. وقد ساهمت هذه الظاهرة في تفشّي واستفحال ظاهرة التفكك الأسري. وهذه الظاهرة تجعل الآباء يعيشون مرارة الشعور بالوحدة والعزلة، كما أنها توقعهم في حيرة كبيرة كيف يتصرفون إزاء هذا الوضع الجديد.

فهذه "القوّالة" في المقطوعة السابقة تصوّر بصدق حيرة الأمّ إزاء ظاهرة خروج الأبناء عن العائلة بعد زواجهم، وتصور فيها مدى حياء لأولادها ورعايتها لهم وانتظارها بشوق كبير عودتهم للبيت فيجدوا المائدة مجهزة بالطعام، كما أنها تصرخ بأعلى صوتها أنها غير مستعدة تماما لأن تنفصل عن أولادها مهما كان الأمر، وتقول أنها في حالة وقوع هذا الأمر مع أبنائها فإنّها ستفضّل أن تعيش مع الأصغر منهم على ألا يغير ذلك من حياء لبقية أبنائها. وهي تشير فيها كذلك إلى أن جميع من تخطّين لأبنائها يشترطون في ذلك ألا يعشن في بيت العائلة.⁹

2-1-3-- موضوع الغربة والهجرة:

إن موضوع الهجرة هو ظاهرة اجتماعية جديدة على المجتمع الجزائري وكثير من المجتمعات الأخرى، وقد اجتاحت هذه الظاهرة العائلات الجزائرية في بداية القرن العشرين، وازداد استفحالا بعد الاستقلال، حيث لا تكاد تخلو أسرة جزائرية من مهاجر لها أو أكثر إلى البلدان الأوروبية وخاصة إلى فرنسا، بحثا عن فرص العمل في ظروف جيدة وزيادة الدخل وتحسين الظروف الاجتماعية، أو لهدف مواصلة الدراسة والحصول على أعلى الشهادات بأفضل مستويات التكوين.

وإذا كانت الهجرة لبلاد الغرب لها أثارها الإيجابية للشباب في حصوله على عمل مغري يؤمن له حياة كريمة أو رغبة، فإن لا تخلوا من آثار سلبية أخرى خطيرة، كقطع الصلة للشباب مع عائلته في وطنه أو قلة زيارته لهم في أحسن الأحوال، مما يسبب له حزنا شديدا للشعور بالغربة والحنين للوطن والأهل والأصحاب والأحباب. ولم يتخلّف فن "القول" عن تسجيل هذه الظاهرة في مضامينه، وإن كانت هذه المقطوعات "القولية" قليلة بالنظر إلى الظواهر الأخرى، ولكننا لانعدامها بالكلية، فقد عثرنا على واحدة تسجل مشاعر الشوق للمغترب عن وطنه لوطنه ولأهله.

ففي "قول" عنوانه: "يَا لِي مَاشِي شَقُّ لَمَّا اَدِّي سَلَامِي" يقول فيها "القول":

"حَلِيلِي يَانَا، يَا لِي مَاشِي (قادي) شَقُّ لَمَّا (الماء) اَدِّي سَلَامِي، حَلِيلِي يَانَا، طَرْيِقْ بَارِي (باريس) مَنَعَرَفْشِ نِيَمَرُوهَا، حَلِيلِي يَانَا، سَلَّمْ عَلَى الْوَاقْشِ (خوتي) رَاهُمْ قَاعْ ثَمَّا حَلِيلِي يَانَا، سَلَّمْ عَلَى حَمُو وَدَيْنْ وَلَدْ حَمَزَة، حَلِيلِي يَانَا، مَنِينْ نَسَمْعْ لَبْسَاطْ (جمع بوسط وهو المذيع) يَهُوضُوا عَلَيَّا، حَلِيلِي يَانَا، لَالَّةُ حَفْصَة رَاهَا هَايْضَة عَلِيَّا، حَلِيلِي يَانَا، لِيَا تَوْحَشْتِي نِي رُوحِي شَوَارْ جَدَّكَ، حَلِيلِي يَانَا، يَا لِي قَادِي شَقْلَمَا اَدِّي سَلَامِي".

ففي هذه المقطوعة يعبر "القول" وهو مغترب عن وطنه إلى باريس عن شدة شوقه وحنينه لعائلته، ويوصي أحد المتجهين إلى وطنه ليبلغ عائلته وأحبابه سلامه، ويذكرهم بأسمائهم كلهم.

2-2- مقطوعات "قولية" ذات مضامين تاريخية:

يقصد بالمضامين التاريخية ذكر حادثة تاريخية أو سرد أحداث مهمة في تاريخ المجتمع، كالحروب والغارات التي كانت بين القبائل، أو ذكر لآفات وقعت في التاريخ، وقد حفظتها الذاكرة الشعبية. وبما أن فنّ "القول" هو شكل مهم من أشكال التعبيرات الشعبية، فقد عكس في كثير منه أحداث التاريخ التي عرفها للمجتمع الجزائري، وهو بذلك سجل حفظ مآثر المجتمع وأيامه، وقد عثرت فيما توفر لي من مقطوعة "قولية" تجسّد هذا المضمون

- وصف معركة تاريخية وذكر أحداثها:

لقد تشبع المجتمع الجزائري بحب ثورته والتفّ حولها واحتضنها، وكان هذا البعد الشعبي هو ما ساهم في نجاحها، فقد قال الشهيد العربي بن مهيدي رحمه الله "ألقوا بالثورة إلى الشارع يحتضنها الشعب"، وقد كان "القول" لسان حال مجتمعه والناطق بواقعه، وصدى لكل مَحَنه ومسرّاته، وقد أتى ذكر الكثير من أحداث المعركة التحريرية في مقطوعات "قولية" جسّد وصور فيها "القولون" أحداث معركة من المعارك، ولا يخفي "القول" في مقطوعته تأثره بأحداث المعركة حيث تختلط فيها مشاعر الحزن والأسى بمشاعر الفخر والاعتزاز، لقد أرادت السلطات الفرنسية من ذلك تطبيق طريقة "ماو تسي تونغ" القائلة: "يعيش الثائر بين السكان مثل السمكة في الماء، فإذا فقد الماء ماتت السمكة".¹⁰

وكان الهدف من تجميع السكان هدف عسكري واحد هو تجويع ما كانت تطلق عليه إسم "الفلاقة" وحرمانهم من كل اتصال بالسكان. "والتجمع هذا يعني في نظر العسكريين الفرنسيين عبارة عن آلة حرب تسمح بقطع جيش التحرير عن قواعده الشعبية والدعم اللوجيستيكي الضروري له (أغذية، تجنيد، أدلاء، معلومات...).

وفي مقطوعة "قَوْلِيَّة" بعنوان: "هُودِي يَا ذِي انْوُلْهِيَّة"⁽¹¹⁾ جاء فيها:

"هاي لالة وهودي يا ذ النولهييه، وريبي لصحرا شحال عطشت فيها جنود ويا محاييني، وهاي لالة،

وَيَا كَسَالْ نَسَالْكَ لَّهْ وَعِيدْ عَلِيَّا بُجَوَابْ شُكُونْ لِي كَانُو فِيكَ، وَيَا مُحَايِنِي، هَايْ لَالَة وَمَا صُرَا بَيْنْ جِبَالْ
كَسَالْ وَاشْ يَقْدَكَ فُلْحَسَابْ ذَا طَايَحْ ذَا مَحْبُوسْ، وَيَا مُحَايِنِي، وَهَايْ لَالَة لَا تَزِيرْشْ عَلَيْهِ الْكُورْدَا يَا كْ اَيْدِيه
مُحَرَّرِينَ مَا شَفُوشْ الْعَذَابْ، وَيَا مُحَايِنِي، هَايْ لَالَة تُحَرِّمُو خُوتِي بَلْقُرْطَاسْ وَدَارُو لُبْيَاسَة وَشْهَدُو وَشْتَعْدُو
لَلْمَوْتْ وَيَا مُحَايِنِي، هَايْ لَالَة عَقَابَهَا فَلْبَيَّضْ مَزَالْ يَا خُوتِي وَيَا كْ آفَلُو شَعَلْتْ فِيهْ اَنَّا وَيَا مُحَايِنِي، هَايْ
لَالَة وَطَبِيبْ اصْحَرَا كَتْلُوهُ، وَيَا مُحَايِنِي السِّي امْحَمْدُ رُوحْ بَلَامَانْ وَهَايْ لَالَة، وَهَايْ لَالَة وَهُودِي يَا ذ
النْوُلْهِيَّة، وَريبي لَصْحَرَا شْحَالْ عَطَشْتْ فِيهَا جُنُودُ وَيَا مُحَايِنِي."

تشير المقطوعة "هودي يا ذ النولهييه و من خلال الروايات المستجمعة تبين لنا بأن المقطوعة قيلت ما بين الفترة 1957- و 1959 أي إبان الثورة التحريرية في المنطقة الثالثة الولاية الخامسة والتي تنتهي لها ولاية البيض، فمن حيث الدلالات الزمنية فهي مرتبطة باستشهاد الشهيد بوران أمحمد (1930-1959) الذي جاء ذكره في أحد المقاطع سي محمد وبالكناية طبيب الصحراء

أما الدلالة المكانية فتكرر ذكر كسال إشارة إلى جبل كسال الذي مازال إلى يومنا هذا رمز مكاني للبطولات الثورية بالمنطقة، وبالرغم من اختلاف الروايات حول ناظم القصيدة في غياب التوثيق إلا أن هناك إجماع بأن صاحبها هي المجاهدة المرحومة سكوم الزهرة، المعروفة بمنطقة بريزينة بنظمها " للقول" وبترديد المقطوعات وتناقلها بسرعة فائقة في التجمعات النسوية يتم إبلاغ رسالة الجهاد والاستشهاد وتعبئة الجماهير، ومن خلال استعراض بسيط للعبارات المستعملة في القصيدة نستنتج ما يلي المستعمر الفرنسي طبق سياسة التجويع والتعطيش على مجاهدي جيش التحرير الذي إختار جبال منطقة بريزينة ومغاراتها كقاعدة ومركز لإدارة العمليات

فكان الاهتمام بمعاناة المجاهدين والتضامن باللجوء إلى الله لتصريف الغيوم والأمطار إلى حيث مكان تواجد الجنود العطشى الوصف الدقيق للمعركة دلالة بأن المرأة كانت متواجدة في ساحة المعركة " تحزمو خوتي بالقرطاس داروا " لبياسة "، ثم كلمة خوتي كلمة شائعة بين المجاهدين فتورتنا إسلامية استمدت قوتها من الله " شهدوا واستعدوا للموت "، طلب الشهادة والاستعداد للموت إشارة إلى بسالة وشجاعة جنود جيش التحرير الوطني " طبيب الصحرا كتلوه " طبيب الصحرا هو الشهيد أمحمد بوران من مواليد سنة 1930 ببلدية الغاسول إستشهد بغار ببلدية بريزينة بواسطة الغازات السامة سنة 1959 واستخرجت جثته سنة 1968 حيث وجدت سليمة وتم دفنه بمقبرة سيدي علي بن سعيد، لقد صوّرت المقطوعة السابقة بشكل دقيق أحداث معركة لحرب التحرير وقعت بجبال "كَسَال"، واجه فيها

عدد كبير من الثوار كتيبة من جيش المستعمر الفرنسي، ووصف حال جنود جيش التحرير في هذه المعركة وقد أنهكهم العطش في يوم حار فلم يستطيعوا مجابهة العدو، ولذلك فهو يناشد المطر ليتجه إلى منطقة المعركة لعله ينعش جنود الثوار ويبعث فيهم الحياة ويمدهم بالقوة، فقد اتجهت إليهم كتيبة من المعركة جيش العدو وهي مدججة بالأسلحة الثقيلة مثل "البياسة" وطائرات "الهيلي كوبر"، وهذا ما جعل منها معركة شرسة دامت لأيام، وقد صور "القول" صمود الثوار في المعركة إلى أن استسلموا في الشهادة وأسر بعضهم. وبالرغم من عدد الثوار كان كبيرا لدرجة أن "القول" لم يستطع أن يحصيهم. فلم تتسرب أخبار المعركة إلى عموم المجتمع ليعرفوا ما حدث بها ولم يصل إليهم وقائعها ولذلك كان "القول" يسئل جبل "كسال" عما وقع فيه.

وتعدّ المقطوعة "القولية" السابقة من أروع "القول" ذي المضامين التاريخية فهي عرفت شهرة منقطعة النظير، فقد ردّدها "القولون" في أنحاء منطقة البيض وجعلوا منها ملحمة تاريخية تجسد فعلا امتداد الثورة التحريرية لمناطق البيض واشتداد المعارك بها كما أنها صورت قوة وبسالة ثوارها.

2-3 - مقطوعات "قولية" ذات مضامين دينية وصوفية:

المجتمع الجزائري مجتمع متدين بطبعه، فمنذ أن وصل الإسلام إلى منطقة المغرب العربي أصبح الإسلام هو الديانة الوحيدة لأهل المغرب عربهم وأما زبغهم، والمذهب الفقهي السائد بالمنطقة هو المذهب المالكي السني، كما أن المجتمع الجزائري ذو نزعة صوفية، يقدر أولياء الله الصالحين ولا ينفك عن ذكرهم والتبرك بهم وزيارتهم في مواسم مختلفة (كركب سيدي الشيخ مثلا)،

وأكثر ما تضمنته مقطوعات "القول" في منطقة البيض ذكر للأولياء الصالحين المعروفين بالمنطقة كسيدي الشيخ، وسيدي أحمد المجدوب، وسيدي سليمان بوسماحة، وغيرهم كثير. أما المسائل الدينية الأخرى غير مدح الأولياء الصالحين فهي قليلة الوجود، ومنها رحلة الحج أو التعبير عن الشوق لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم كما فعلت الحاجة "عبلة" في إحدى مقطوعاتها.

ومما يتضمنه بعض "القول"، وهو قليل بالمقارنة مع "القول" الصوفي السابق، وصف رحلة الحج والطقوس التي تتعلق به كالنزول في جدّة ولبس الجبات البيضاء، والشرب من ماء زمزم والصلاة في الحرم وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وغيرها، ولا يخفي القول في "قوله" ذاك اشتياقه وحنينه لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو الله أن تتحقق أمنيته، وهذا مانجده في "قول" للحاجة "عبلة" تقول فيه:

"يَا رَاهَا فِي خَاطِرِي زِيَارَةُ مُحَمَّدٍ اللَّهُ يُوصِّلَنِي لَيْهَ، يَا مَبْرُوكُ الْبَاسْبُورُ يَا حَجَّاجُ النَّبِيِّ نَشَأُ اللَّهُ نَقْدُو لَيْهَ آ، يَا رَبِّعِينَ صَلَّى كَمَلُوهَا يَا خَيْرِي قَدْ زَارَ الرَّسُولُ آ، يَا الْمَدِينَةَ لَمُنُورَةَ هَوْلِي

قُلِّي مَا نُطِيقُش نَنَسَاكْ، يَا لُبْقِيع (البقيع) لَا نَجْبُو رَاهَا لَسْلَامْ لَا تَتَلَا فِي فِيهِ آ، يَا مِينْ وَصَلْنَا لَجْدَةَ لَسْلَامْ لَا بُسَا لَبِيضْ جَدِيدْ آ، يَا رَاهُمْ هَوْضُوا عَلِيَّ لَرَكَابْ سَايِرِينَ فُطَيَّارَاتْ آ، يَا مَا زَمَزَمْ وَرَدُوهُمْ فِيهِ لُمْلَايَكَة...".

4-2 مقطوعات "قولية" ذات مضامين عاطفية:

من الطبيعي أن يتضمن "القول" الموضوعات العاطفية، لأنه يعبر عن واقع المجتمع، والمسائل العاطفية زخر بها الشعر العربي قديما في شكل القصائد الغزلية، و"القول" هو امتداد وتطور عن الشعر العربي الفصيح والمملحون.

وفي "القول" لا ينفك "القول" عن التعبير لحبه لزوجته ، وقد يحدث أن ينقطع الوصل بين الحبيبين فلا مناص حينئذ من أن يذكر "القول" فيها حزنه لذلك وتأسيه.

ففي "قول" بعنوان: "يَا خَيْمَةَ لَا لَا وَبُنْتُ النَّعِيْمِي" ⁽¹²⁾، يقول فيه صاحبه:

"يَا خَيْمَةَ لَا لَا وَبُنْتُ النَّعِيْمِي، يَا مَشَاتْ غَيْضَانَةَ مُحَالَ لَا تَوَلِّيِي، يَا طَبِيبَ رَبَّانِي وَيَدَاوِي الْمُحَنَّةَ، يَاوَرَاهَا مَاشِيَا لِلصَّخْرَا تَدَاوِيِي، يَا طَبِيبَ رَبَّانِي وَيَدَاوِي الْمُحَنَّةَ، يَا مَشَاتْ غَيْضَانَةَ وَمُحَالَ لَا تَوَلِّي، يَنَا دَفَعْتُ رَابُونِي لِلشَّيْخِ بُوعَمَامَةَ، يَا عَمَاوْ عَيْنِيَا وَطَلَعْ شَيْبَ رَاسِي، يَا مَشَاتْ غَيْضَانَةَ وَهَذِيكَ عِرْ قُلِّي، يَا مَشَاتْ غَيْضَانَةَ وَمُحَالَ لَا تَوَلِّيَا، يَا خَيْمَةَ لَا لَا وَبُنْتُ النَّعِيْمِي".

في "القول" السابق يتحدث فيه صاحبه، ويبدو أنه يخاطب زوجته ولايتبين بشكل قاطع إسمها الحقيقي فقط كنى عنها ببنت النعيمي ولم يصرح باكثر من ذلك نظراً لطبيعة العرف السائد ،وقد تمحّن كثيرا لهذا الأمر حتى فقد بصره وظهر شيب شعره من شدة المحنة والأسى.

الخاتمة:

إن ما يمكن استنتاجه من خلال بحث موضوع القول بمنطقة البيض ، الغياب شبه التام لدراسات سابقة وبحوث معمقة على واحد من أهم فنون الأدب العربي الشعبي ، له جذوره، وله تجلياته في امتدادات الثقافة العربية الشعبية، وله تقسيماته وخصائصه المرتبطة بالمنطقة

فهو فنّ لأنه تعبير نابع من حركة الحياة ومعبر عن المشاعر الإنسانية الصادرة من واقع هذه الحياة في يسرها وعسرها عبر مسار تاريخي متنوع وطويل ، وهو أدبيّ لأن مادته الأساسية هي الكلمة الانزياحية التصويرية الراسمة لهذا الشعور أو ذاك في لحظات الأفراح كما في لحظات الأتراح...

وهو عربيّ لأن قاموسه ينتمي إلى عربية صافية مهذبة من مستوى الدرجة الثانية في مراتب اللسان أي اللغة العربية الأسرية التي يُطلق عليها مصطلح " اللهجة " ويتغير نطقها الصوتي واختياراتها اللفظية بتأثيرات البيئة وحركة المجتمع فتخرج من العموم وتصبح محلية مرتبطة بمكان محدد ومعبرة عن

خصوصيته في بلاغة يتذوقها أهل المكان دون غيره غالباً، كما حدث ويحدث في اللهجة المحلية الخاصة بالسهبوب الغربية الجزائرية التي تتوسطها مدينة البيض وتتميز بقاموس له جذوره في العربية الفصحى لكنه تطور بإحداث بعض التغيرات في أصوات الحروف وترتيبها حين النطق وبإحالاتها الدلالية التي لا تنفصل عن أصل معانيها لكنها أضافت لها خصوصية بيئية مجتمعية جعلتها محلية تدل على أهلها دونما أدنى لبس... وهو شعبي لأنه ليس فن النخب وإنما فن العامة والسواد الأعظم من الناس، هذا إضافة إلى تميزه بالعفوية التي بينها وبين التصنع مساحة واسعة جداً ولكونه لا ينتسب إلى قائل محدد إلا نادراً، إلى جانب تميزه بالثبات والتغير في آن معاً. فهو ثابت من حيث بنياته النصية والإيقاعية والمناسباتية العامة وهو متغير من حيث الإضافات الطفيفة التي تدخل عليه مع كل أمر جديد طارئ مؤثر من غير أن يغادر المؤلف أو يحدث صدمة في ذوق جمهوره العريض وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار أن "القول" فن من فنون التراث الشعبي اللامادي في الجزائر، وهو عبارة عن مقطوعات يتضمن بعض العبارات كأنها خواطر، لها مضامين وأشكال تؤدي غناء في الأعراس والأفراح. بمضامين اجتماعية وتاريخية ودينية وصوفية وعاطفية.

- لقد شهد "القول" تطوراً في مضامينه وفي شكله تبعاً للتحويلات الاجتماعية والثقافية التي يعرفها المجتمع الجزائري. وعليه بات من الضروري العمل على ضرورة أن يجمع كل التراث "القول" من صدور "القول" بمنطقة البيض في أوعية إلكترونية وأن يتاح على قنوات اليوتيوب ليحفظ من الضياع والانقراض، وليكون في متناول محبيه والباحثين الاجتماعيين والأنثروبولوجيين واللغويين ليتم تصنيفه واستخراج المضامين الثقافية والاجتماعية واللغوية. ويجب أن يراعى أثناء جمع المقطوعات "

- "القول" شاهد على خصائص اللهجة البيضاء، فلا ينبغي التصرف في أصواتها وألفاظها بتفصيلها، وتغيير ألفاظها لأي هدف من الأهداف، فثقافة المجتمع في الجنوب الغربي من الجزائر ثقافة حاملة ومشبعة ومتفتحة على "فن القول"، فالقول إنما وجد ليقيم أركان تلك العلاقة بين موقع ومستوى ومسار "القول" وبين مضامين تلك الثقافة، ونشاط الوحدات الاجتماعية، المرتبطة والمتعلقة والمتراصة ضمن حركة واحدة، هو من يجمع بينهما يؤلف ويجذر ويوجه عمق تلك العلاقة ليكون المجتمع منمطاً ومتحكماً في ثقافته مسدداً ومنسقاً لدورة حياتية كاملة تؤمن معبراً للمجالية متيناً وقوياً، فالمجتمع بحاجة إلى توفر نسق عال من التواصل والاندماج والتوافق بين القيم التي تحملها الثقافة العامة والعامة ليبقى مستوى تردد ثقافة المجالية سارياً في أمثلة وأفكار وحكم وإحالات عامة وخاصة يحفزها ويرددها ويكررها ويتمثلها "القول" كلما احتيج له ليكون مصدراً للاسترجاع والبهت ونشر اللحمة القيمة بين هذه الوحدات، فهي تحت تصرفه وهي لها من الموالين بالحضور والسمع والتصرف، وهو الذي يرى نفسه أن المجتمع حوله ليكون مزكياً للحفاظ على شبكة قيم ثقافة المجتمع

الهوامش :

- 1 كلمة متداولة في العامية بمنطقة البيض وتعتبر رديف للقول
- 2 بمعنى الدف
- 3 عبد القادر خليفي، « القول، المرأة والثورة التحريرية » مجلة إنسانيات 2004 ، ص 13-18
- 4 ينظر مثلا: ديوان الشاعر محمد بلخير، في قصيدته التي تنيف عن الـ70 بيتا، والمقفاة بقافية "الهاء": "أنا خديم الرحلة البيضاء"
- 5 أنيسة بركات، محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر، منشوات المتحف الوطني للمجاهد 1995، ص: 65.
- 6- الشيخ قدور بن عليّة وقال نسوة في المدينة دار الغرب للنشر والتوزيع 2001 ص 21 – 26
- 7 مؤدّة بالقصبة (الناي) والبندير.
- 8 جلال بومدين ، فن القول الشعبي في مدينة البيض ومحيطها ، تفاعل النصي والحركي في تجلياته ، مداخله في ملتقى القول ورقصة الصف ، دار الثقافة ممد بلخير البيض نوفمبر 2018
- 9 د. بوشيبة عبد القادر ، القول بمنطقة البيض ، مداخله في ملتقى القول ورقصة الصف ، دار الثقافة محمد بلخير البيض نوفمبر 2018
- 10 - L'harmattan, Paris 1998. P27 Michel Cornaton, Les Camps de regroupement de la guerre d'Algérie
- 11 أدى هذه المقطوعة أكثر من قوال منهم الشيخ سليمان بالسيتيني، والشيخ عمر بالقصبة و السانتي و الحاجة الضّاوية أدها بالبندير
- 12 مؤدّة بالقصبة (الناي).